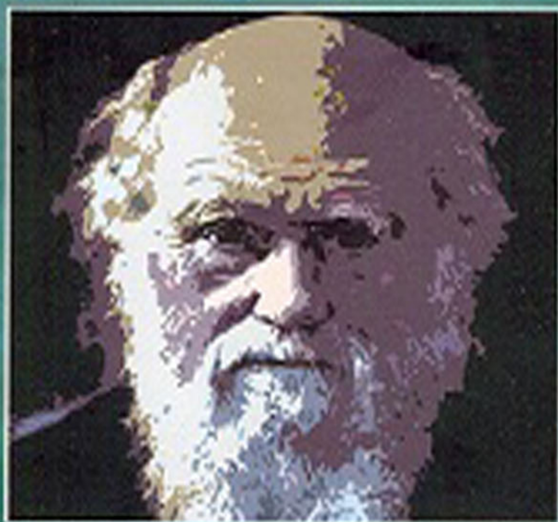




دافيد باس

علم النفس التطوري



ترجمة: مصطفى حجازي





علم النفس التطوري

دافيد باس

محتوى موجز

مقدّمة المترجم

تشكّل هذه الترجمة لكتاب «علم النفس التطوّري: العلم الجديد للعقل» الكتاب الأول باللغة العربية الذي يقدّم أحدث مذاهب علم النفس نشأة، والمعروف بهذا الاسم. لا تقتصر أهمّية هذا الكتاب على جدّته فقط، وإنما أيضاً في كونه يتجاوز الطروحات المعروفة في مختلف فروع علم النفس ونظرياته الراسخة والشائعة، كي يقدّم منظوراً جديداً لتفسير ظواهر الحياة الإنسانية المعروفة على الصعد العقلية والمعرفية والانفعالية والعلائقية والسلوكية، الفردية منها والجماعية.

إنّه يقدّم مقاربات منهجية بحثية ونظرية كاشفة، وقد تكون مفاجئة، مما يستدعي وقفات تأمّل وتساؤل وإعادة نظر في دلالة ظواهر الحياة والسلوك، التي تؤخذ بمثابة مسلّمات تُرَدّ إلى تفسيرات ثقافية شائعة (مثل العادات والتقاليد والقيم والتراث والانتماء) أو هي تُرَدّ إلى تفسيرات علم النفس الراسخة. يمثل الكثير مما يطرحه هذا الكتاب، ربما، تحدّياً استفزازياً للمعروف والمألوف من التفسيرات، وقد يثير بالتالي التساؤل والتشكيك وحتى الرفض عند البعض. إلاّ أنها تشكّل على كل حال فرصة للتفكّر والتأمّل وإعادة النظر في بعض المسلّمات الناظمة للرؤى والموجّهة للممارسات، مما يوسع من نطاق فهم الوجود الإنساني ويعمّقه.

لا بدّ قبل تقديم هذا الكتاب ومؤلّفه، من وقفة تستعرض نشأة هذا المذهب الجديد في علم النفس، في مرتكزاته ومسلّماته، وطروحاته، وروّاده وسرعة انتشاره وتطبيقاته. وسيتضح من هذا العرض أن المؤلف هو أحد أبرز روّاد هذا

تمهيد

إنه لمن المثير بشكلٍ خاص أن يكون المرء عالم نفس تطوّريّاً في هذه الفترة من تاريخ العلم. معظم العلماء يشتغلون من ضمن نماذج علمية راسخة. وعلى العكس من ذلك فإنّ علم النفس التطوّري هو علم جديد ثوري، وتوليف حقيقي لمبادئ علم النفس المعاصرة والبيولوجيا التطوّرية. وآمل أن يسهم هذا الكتاب، من خلال تقييم المجال راهناً، بقسط متواضع من إنجاز ثورة علمية توفّر الأساس لعلم النفس في الألفية الجديدة. ومنذ نشر الطبعة الأولى الحائزة جائزة علمية من كتاب علم النفس التطوّري: العلم الجديد للعقل في العام 1999، حدث انفجار من الأبحاث الجديدة في هذا المجال. ظهرت مجلات جديدة في علم النفس التطوّري، وتزايد باضطراد حجم المنشورات التطوّرية في مجالات علم النفس الرائجة. كما ابتدأ تدريس مقرّرات جديدة في علم النفس التطوّري في بعض الكليات والجامعات في العالم أجمع. ما زال هناك العديد من الثغرات في المعرفة العلمية، وكل اكتشاف جديد يحمل أسئلة متجدّدة ومجالات جديدة للاستكشاف. حقل علم النفس التطوّري نابض، ومثير ومترع بالاكتشافات التجريبية والتجديدات النظرية.

وبالفعل، وكما يلاحظ ستيفن بنكر، الأستاذ في هارفرد «هناك في دراسة البشر دوائر كبرى في التجربة الإنسانية من مثل- الجمال، الأمومة، القرابة، الأخلاق، التعاون، الجنسانية والعنف التي يوفّر فيها علم النفس التطوّري النظرية الوحيدة المتماسكة» (بنكر، 2002، ص 135).

الباب الأوّل

أسس علم النفس التطوّري

يقدم فصلان أُسس علم النفس التطوّري. يرصد الفصل الأوّل الحركة العلمية التي قادت إلى علم النفس التطوّري. بدءاً من وصف المحطات البارزة في تاريخ نظرية التطوّر، انطلاقاً من نظريات التطوّر الموضوعة قبل تشارلز داروين وانتهاءً بالصياغات الحديثة للنظرية التطوّرية المتوافق عليها بشكل كبير في علوم البيولوجيا حالياً. ثم يتم فحص ثلاث حالات من سوء الفهم الشائع حول النظرية التطوّرية. وأخيراً نرسم المحطات الكبرى في مجال علم النفس انطلاقاً من تأثير داروين على نظريات سيغموند فرويد في التحليل النفسي، وانتهاءً بالصياغات الحديثة لعلم النفس المعرفي.

يوفر الفصل الثّاني الأُسس المفهومية لعلم النفس التطوّري الحديث، ويقوم الأدوات العلمية المستخدمة في اختيار الفرضيات النفسية التطوّرية. يفحص القسم الأوّل بعض النظريات حول أصول الطبيعة البشرية. ثم نتحول لتعريف المفهوم المركزي لآلية نفسية متطوّرة ونحدد الخطوط العريضة لخصائص هذه الآليات. يصف الجزء الأوسط من الفصل الثّاني الطرق الكبرى المستخدمة في اختبار الفرضيات النفسية التطوّرية، ومصادر الأدلة الّتي تتأسّس عليها هذه الاختبارات. وحيث إن بقية الكتاب تتمحور حول مشكلات التكيف الإنساني، فإن نهاية الفصل الثّاني تركز على الأدوات التي يستخدمها علماء النفس التطوّري لتحديد مشكلات التكيف، بدءاً من مشكلات البقاء وانتهاءً بمشكلات نهج حياة الجماعة.

الفصل الأوّل

الحركات العلمية التي تقود إلى علم النفس التطوّري

«أرى في المستقبل البعيد مجالات مفتوحة لأبحاث أكثر أهمية. وسيقوم علم النفس على أساس جديد يتمثل في ضرورة اكتساب كل قوة عقلية وكل كفاءة بالتدريج».

تشارلز داروين، 1859

لاحظت عالمة الأحافير شيئاً غريباً وهي تزيل الأوساخ والبقايا عن الهيكل العظمي: فالجانب الأيسر من الجمجمة مصاب بكسر غائر، ناجم على ما يبدو عن ضربة شرسة، وفي القفص الصدري - من الجانب الأيسر كذلك - يستقر رأس رمح. وبالعودة إلى المختبر، حدَّد العلماء أن الهيكل العظمي كان عائداً لإنسان نياندرتال مات قبل حوالى خمسين ألف سنة مضت، وهو أقدم ضحية قتل معروفه. واستناداً إلى الأذى اللاحق بالجمجمه والقفص الصدري، فإن القاتل كان يحمل السلاح المميت بيده اليمنى.

يكشف السجل الأحفوري للإصابات اللاحقة بالعظام نمطين شائعين بشكل لافت للنظر (ترنيك هاوس وزيميرمان 1982، وولكر 1995). أولهما أن هياكل الرجال العظمية تحتوي عدداً أكبر بما لا يقاس من الصدوع والكسور، مما تحتويه هياكل النساء. وثانيهما أن الإصابات تتركز في غالبيتها في الجوانب الوجهية اليسرى من الجماجم والهياكل العظمية، مما يوحي بمهاجمين يستعملون يدهم

الفصل الثّاني

علم النفس التطوّري الجديد

«علم النفس التطوّري هو على صعيد الجدل والمحاجّة واحد من أكثر التطوّرات أهمية في العلوم السلوكية خلال العشرين سنة الأخيرة».

بوير وهيكهاوسن، 2000، ص 917

كوّن عالم النفس التطوّري كارل غرامر فريقاً من الباحثين لدراسة الإشارات الجنسية كما تحدث في سياق شبه طبيعي: أي في حانات العُزَّاب (غرامر، 1996). وضع طاقماً من الملاحظين داخل الحانات، واستعمل نماذج تقدير مصمَّمة خصيصاً لتسجيل ملاحظات مدى تكرار مقاربة الرجال للنساء في الحانة. وقام ملاحظ اخر بالتقرب من كل امرأة تغادر الحانة سائلاً إيّاها في ما ذا كانت توافق على أن تكون جزءاً من الدراسة. تمّ تصوير النساء المشاركات اللّواتي ملأن استبياناً مختصراً يطلب معلومات حول استخدامهن لوسائل منع الحمل، والوضع الراهن لدورتهنّ الشهرية (من مثل: كم مضى من الوقت منذ انتهاء آخر دورة). ثم قام غرامر بتحويل الصور رقميّاً واستخدم برنامجاً للحاسوب لحساب نسبة الجسد التي تكشف كل امرأة عنها.

بالنسبة لمجموعة النساء اللّواتي لم يكن يتناولن موانع حمل فمّنة، كان يغلب أن يبادر الرجال في حانة العُزّاب إلى مقاربة النساء اللواتي كنّ في أعلى فترات الخصوبة خلال دورتهن الشهرية - أي في فترة الإباضة. وعلى العكس من ذلك فإن النساء اللواتي لم يكن في فترة الإباضة كانت مقاربتهن أقل تكراراً.

تتضمن المناخ، الطقس، نقص إمدادات الطعام، السموم، الأمراض، الطفيليات، المفترسون، وعدائية أبناء النوع (أعضاء النوع ذاته).

وَلَّدَ كل من هذه القوى العدائية مشكلات تكيّفية للبشر - وهي مشكلات تكررت في كل جيل على مدى التاريخ التطوّري الطويل. وكانت المشكلات التكيفية مهمة في تحديد حلول بقاء ناجحة. ولقد فُرِضَتْ مصفاة انتقائية فشل في المرور من خلالها من وقفوا ضحية المرض، الطفيليات، المفترسين، فصول الشتاء القاسي، والقحط المديد في فصول الصيف. لاحظ داروين «أنه في معركة الحياة الكبرى... تكون بنية كل كائن عضوي على علاقة، ببنية كل الكائنات العضوية الأخرى، التي يدخل معها في تنافس على الطعام والمسكن، أو التي يتعيّن عليه الهروب منها، أو التي يُقتات من اصطيادها، وهي علاقة على صعيد الأشياء الأكثر أساسية، ولو أنها غالباً ما تكون خفية» (1859، ص 61).

وهو ما يشير إلى أن البشر تعين عليهم دوماً التفاعل مع العالم البيولوجي بطرق عالية التخصص. يتعين علينا أن نعرف ماذا يمكننا أن نأكل، وما يمكن أن يكون ساما، ماذا يمكننا أن نأسر، وما الذي يمكنه أن يأسرنا. لقد بَيَّن العمل العلمي فعلاً خلال العقود الماضية أن البشر يبدو عليهم كونياً امتلاك «بيولوجيا شعبية»[1] عالية التعقيد (أتران، 1998؛ برلين، 1992؛ كييل، 1995). يتمثل لبّ هذه «البيولوجيا الشعبية» في الحدس الذي يذهب إلى أن الكائنات الحية تأتي على شكل مجموعات غير جلية تتطابق مع أنواع متمايزة، وأن لكل نوع متمايز «جوهراً» جوانياً ينتج نموّه، ووظائفه الجسدية، وشكله الخارجي، وأوجه قوّة خاصة به. تمتلك عشبة «القراص» جوهراً جوانياً ينتج أشواكاً يمكن أن تلسعك. ويمتلك الأسد جوهراً جوانياً ينتج أنياباً ومخالب خاصة يمكن أن تقتلك.

يبدو أن البيولوجيا الشعبية تبزغ مبكراً في الحياة وأنها كونية عبر الحضارات. فعلى سبيل المثال، يقسم الناس في العالم كله وبشكل عفوي، كل الأنواع إلى «نباتات» و«حيوانات» (أتران، 1998). ويبدي الأطفال في سنّ مبكرة منذ ما قبل المدرسة اعتقادات حول الجواهر الجوانية للأنواع. إنهم يعتقدون على سبيل المثال، بأنك لو انتزعت أحشاء كلب، فإنه يفقد «جوهره» ولا يعود كلباً في